وكان هذا اللقب حقّا أضعناه واسماً ثابتاً أسقطناه» . أما من سبقه من الحكام في هذه الدولة بدءاً بعبد الرحمن الداخل ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، وحتى عبد الله بن محمد الذي تولى الإمارة في ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، فكانوا يقنعون بلقب أمير .

حرص عبد الرحمن الداخل على أن يضيف إلى الأعمال العظيمة التي قام بها في تحقيق الأمن لإمارته إسهاماً كبيراً في خدمة الحضارة والثقافة وتشهد له آثار مدينة قرطبة ومسجده العظيم بإنجازاته الكبيرة .

(انظر قرطبة)

ويُروى أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه يوماً:

أخبروني عن صقر قريش! ولما عجز ندماؤه عن الإجابة المطلوبة قال لهم :

«إنه عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجميا مفرداً، فمَصَّرَ الأمصار، وجَنَّدَ الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشِدَّة شكيمته» .

وهكذا فقد كسب عبد الرحمن الداخل احترام وتقدير أعداء الأمويين الذين أقاموا خلافتهم على أنقاض الدولة الأموية .

* * *

محمد بن عبد الله بن أبي عامر القحطاني :

عاش محمد بن عبد الله بن أبي عامر القحطاني على أنه طالب علم في جامعة قرطبة في وقت كان الأندلس فيه ينعم بأزهى عصوره الذهبية تحت راية الإسلام،

وذلك هو عصر عبد الرحمن الناصر الذي بلغت فيه الخلافة الأموية بالأندلس ذروة القوة العسكرية، حيث كانت البلاد تجني ثمار الانتصارات الكبيرة التي حققها ذلك البطل الكبير الذي ظهر كشعلة انبثقت في الظلام الحالك خلال الفترة ٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م، حتى قال عنه ابن خلدون إنه:

«أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطأه العسكر في أيام سلفه، ومدت له أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم من رومة ومن القسطنطينية على سبيل المهادنة والسلم.. وصل إلى سدته ملوك الجلالقة من أهل جزر الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين فقبلوا يده، والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه.. هذا إلى جانب الدور الكبير الذي قام به في خدمة الحضارة الإسلامية والعمران بالأندلس».

وهكذا كان العصر الذي عاشه محمد بن عبد الله بن أبي عامر عصر أعمال عظيمة وبطولات.

وكان ابن أبي عامر ذكيا، ظاهر التفوق على أقرانه ومعاصريه، طموحاً يتطلع إلى دور كبير يقوم به يرفعه إلى مصافّ بطولات عصره.

وكانت البداية العملية في حياة ابن أبي عامر بداية متواضعة، فقد افتتح دُكّاناً بجوار قصر الخلافة كان يكتب فيه للناس شكاواهم.. وتمكن عن طريق صلاته ببعض خدم القصر أن يكسب ثقة السيدة صبح، زوج الخليفة الحكَم المستنصر، الذي خلف أباه الناصر خلال الفترة ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م، فأوصت زوجها الخليفة الحكم به فولاّه قضاء بعض النواحي، ثم وصل إلى كرسي

الوزارة، وتزوج ابن أبي عامر من ابنة قائد الجيش، غالب بن عبد الرحمن، ثم تمكن من شغل وظيفة الحجابة في قصر الخلافة.

وعندما تُوُفِّي الخليفة الحكم المستنصر عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، وكان ابنه هشام لازال حدثاً- دانت الأمور لابن أبي عامر فصارت بيده كل أمور الدولة، وجلس على سرير الملك، وأمر بأن يُحيَّا بتحية الملوك، وتَسمّى بلقب الحاجب المنصور، وكانت الكتب والرسائل والمخاطبات والأوامر تصدر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة.

غزا محمد بن أبي عامر بلاد الروم، وفتح الله علي يديه برشلونة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وقتل ملكها بورل، وسبى أهلها، وخربها وغنم منها غنائم كثيرة من عبيد وخدم، واحتل مدينة شنت ياقب في حملته إلى جليقية عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، وغزا ليون وسهاجوت واحتلهما ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، ودانت له أقاصي بلاد الشرك.

وقد أوفد إليه إمبراطور القسطنطينية بازل الثاني رسولاً خاصّا، كما أوفد له أوتون الثالث ملك إيطاليا والمانيا والإمبراطورية الرومانية رسلاً يحملون الهدايا.

كان ابن أبي عامر خلال الفترة التي حكم فيها البلاد باسم الخلافة (٣٦٧-٣٩٢هـ/ ٩٧٧-١٠٠٢م) يتولى الغزو بنفسه، ولم يهزم قطّ في خمسين غزوة غزاها طوال حكمه البالغ ٢٥ عاماً، وكان يُعدّ قائداً من الطراز الأول، ما رأى أسبان الشمال هزائم ولا مَذَلّةً مثل هزائمهم على يديه، فقد دمر مدنهم الكبيرة ووصل إلى أقصى الركن الشمالي الغربي من إسبانيا، حيث بلدة القديس يعقوب التي هدمها. وكان محبوباً لدى المسلمين فقد ردّ إليهم كرامتهم، وتوفي عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م.

وقد خلفه ابنه عبد الملك الذي ظلّ في سلطانه ٧ سنوات، وكان كأبيه كفاءة ومقدرة، حتى توفي عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م.

ثم تولى ابنه الثاني عبد الرحمن بعد موت أخيه فأرغم الخليفة على أن يعهد إليه بولاية العهد، فثار عليه العرب، وانفضّ جُنده من حوله، فقتله بعض منافسيه وبموته انتهت الدولة العامرية.

* * *

محمد بن يوسف بن هود :

محمد بن يوسف بن هود أبو عبد الله من أعقاب بني هود الجذاميين، من ملوك الطوائف بالأندلس، وهو آخر ملوك هذه الدولة الكبار، كان أول أمره من الأجناد مقيماً في سرقسطة، ولما ظهر الخلل في دولة الموحدين ثارعليهم بالصخيرات وتلقب بالمتوكل على الله عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، فقاتله والي مرسية، وكان من بني عبد المؤمن بن علي من الموحدين فظفر به ابن هود ودخل مرسية. وخطب باسم الخليفة المستنصر العباسي ببغداد وقاتله والي شاطبه، ففاز ابن هود، فزحف عليه المأمون إدريس بن يعقوب، فتقهقر ابن هود واعتصم بمرسية، فحاصره المأمون مدة وعجز عن فتحها فرحل.

وعظم أمر ابن هود فبايعه أهل شاطبة وقرطبة وإشبيلية واستولى على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح، بينما كانت تجيئه كتب الخليفة العباسي ينعته فيها بمجاهد الدين، وسيف أمير المؤمنين، وثار عليه ابن الأحمر محمد بن يوسف بحصن أرجونة من أعمال قرطبة، داعياً للحفصيين أصحاب إفريقية، وأطاعته قرطبة سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٦٠م.